أبيع.. ولا أغادر!

الأستاذ سهيل ادريس المحترم

بلغني مدى تأثرك وألمك وانفعالك الأخويّ النبيل، وهو أمرٌ لا نستبعده ولا نراه غريباً عنكَ - أعني: إحساسَك بمؤازرة إخوانك المثقفين العراقيين من أدباء مبدعين. فقد آزرتَهُمْ مراتٍ ومراتٍ وساندتَهم منذ الأيام الأولى لصدور مجلّتهم **الآداب** حتى الآن. ولقد بلغني موقفُكَ هذا عن طريق أخينا الكريم وصديقنا العزيز الأستاذ ماجد السامرائي الذي التقاك وحدَّثَكَ عما نعانيه وما عانيته أنتَ بشأن حالتي كقاصٍ عربيّ آمَنَ ومايزال بأهمية الكتابة غايةً مثلى لا لعبة أو لهواً أو مشاغلة أو تزجية وقت. هذا القاصّ الذي هو في الجانب العملي من حياته اليومية موظفٌ، وعضو هيئة تحرير مجلة **الأقلام**، وعضو اتحاد الأدباء في العراق، وعضو اتحاد الأدباء العرب، وأصدرَ حتى الآن تسعةَ كتب بين مجموعة قصصية ورواية ودراسة في القصة القصيرة... هذا الكاتب وجدَ نفسَه فجأة يبيع الكتبَ في شارع المتنبي في بغداد، السوق الخاصة ببيع الكتب وشرائها بأنواعها.. هذا الكاتب/ القاص الذي يُقال له دائماً: إنّك كاتب مُجيد ومُخلصٌ للغتك وأدبك، وإنّك ذو تاريخ أدبي طيّب، وإنك حسن السمعة - وأنا يا سيّدي أعتقد أن الجميع، هنا أو هناك، يقول كلاماً كهذا لنفسه أو لغيره - كيف حدثَ الأمرُ واستبدل القاصُّ المتمرّسُ في الكتابة مهنةَ الإبداع ببيع الكتب في شارع المتنبي؟..

أدعوك الآن إلى يوم التقينا فيه أنا وأنت مع مجموعة من المثقفين العراقيين بينهم الشاعر الصديق حميد الخاقاني في كافتريا الإذاعة والتلفزيون في بغداد في نهاية السبعينات، حيث بادَرْتَني بالحديث عن أهمية الحرية وضرورتها، أهمية أن يكون الكاتب حرّاً إذا أراد لأدبه أن يكون إنسانياً شاملاً، عميقاً وواضحاً.. كنتَ تتحدث معي بشأن الحرية.. ومرّتْ أعوام لكي تنضج التجربةُ وربّما كانت دواعيها تتطلّب الانتظار والصبرَ وقتاً كافياً، لكي نتعلّم ونعرف أكثر ولكي نتبيّن الأمورَ بصورة أوضحَ بكثير ممّا هي عليه أيّام جلستنا تلك. كان كلُّ شيء في ذلك الوقت ممكناً: العيشُ والكتابةُ والسفرُ. لكني اكتشفت أنّ ثمّة أهمية خاصة في العزلة ولو إلى حين، أي في التخلّص من أيّ امتثال أو التزام بأي شيء يحاول أن يأخذ مني إبداعي وكتابتي. وكانت عزلةً مريحةً لأنها لم تكن مطبقةً أو منكفئة على نفسها. وقد قدّمتْ لي عزلتي (رغم خساراتي في الجانب المادي والوظيفي) فرصةً مناسبة للتشوّف الحر، وبدأت رموزُ الكتابة ودلالات العمل القصصي تنحت مداها وتعمّق جذْرَها في روحي ووجداني. وكان الإحساس بالعدالة هاجساً ستينياً تعلّمناه منذ السنوات الأولى لطفولتنا الإبداعية والأدبية إذا جاز لنا قول ذلك. وبدافع من عوامل البحث عن الحرية والإحساس الطاغي بالعدالة قرّرتُ أن أكون أنا نفسي وباستمرار. وكما يقول أحدُ كتّاب أمريكا اللاتينية: الإبداع والسياسة مثل الزوجة والعشيقة، كلُّ واحدة تريدك لها! لذا كان لا بدّ من اختيار الكتابة بصورة لا تراجع عنها.

لكن الأيام فاجأتنا بما تريد هي لا بما نريد نحن، وجرى الذي جرى في ليلة ١٦ - ١٩٩١/١/١٧ ولسنا في صدد ذلك.. ولقد صدرت لي مجموعة قصصية في عام ١٩٩١ **صراخ في علبة** وأخرى في عام ١٩٩٥ هي **خريف البلدة**. وهذه إشارة إلى انغماسي في الكتابة والعناية بها. ولكنّ الكتابة وحدها هنا غير كافية للعيش إلاّ إذا كنت تملك ثلاثَ أيْدٍ، والإبداع خلال عمره الطويل لم يسعف أديباً في العالم الثالث. والأزمة الاقتصادية بدأت تزحف، والضائقةُ الماديةُ أوشكت أن تطبق علينا ونحن لم نتعلّم في ماضي حياتنا من مهنٍ أخرى غيرَ مهنة الكتابة، ولقد تمكّن بعضُ زملائنا من العمل في ورشات ومصانع ومكاتب، بعضهم تعلّمَ المهنَ هذه في طفولته أو ورثها عن الآباء. إذن ما العمل وزُغَبُ الحواصل لا يطالبونكَ علانيةً ولكنهم يثبّتون النظرةَ عليك؛ وهذا وحده يكفي لتمزيق حشاياك ويجعلك في حيرة أمام عشراتِ الأسئلة:

ماذا عليكَ أن تفعل أيها الأديب، يا مَنْ غادَرَ كلَّ شيءٍ واقتنع بفردوس الإبداع؟. كيف الحصول لهم على الخبز والرز والسكر والشاي والحليب والثياب وأجور النقل، ومرتّبُ الوظيفة لا يسدّ رمقاً واحداً؟. هل عليك أن تعمل أيَّ عمل، لا الكتابة الأدبية فحسب؟ ماذا تملك لكي تبيعه وتحصل بثمنه على ما يسدّ رمق الصغار؟

لا شيء غير مكتبةٍ أمضيتُ في جمعها وترتيبها والعناية بها ثلاثين عاماً. ها هي الساعة حانتْ لتساندك الكتبُ وتثبت لك أنّها في ساعة المحنة أفضلُ عَوْناً لكَ مِنْ سواها سواء أكانوا أشخاصاً أم مؤسسات. ولا بدّ من الخسارة. وهكذا بدأت العملية الجهنمية. سيّدي، أوّلاً بعنا تولستوي (**الحرب والسلم** نسخة دار اليقظة)، ثم دستيوفسكي (**الأخوة كرامازوف، الابله**)، وجيمس جويس (**يوليس**، الترجمة العربية)، ثم فوكنر ومالرو وفلوبير وسيمون دي بوفوار، وكارلوس فوينتس وكورتزار. هؤلاء مدّوا أيديهم للمعونة! تبعهم في البيع سبعةُ مجلدّات للفنّ التشكيلي لبيكاسو وسيزان وغويا والجريكو

وداڤنشي ومجلدان عن الفنّ الإسلامي. ولكنّ هذا وحده لا يكفي، أذن ليؤازرْنا سارتر وماركيز وبلزاك والمتصوّفة العرب وعبد الرحمن بدوي (وكتابَكَ أيضاً بعتها، أبا سماح: **الخندق الغميق والحي اللاتيني** - وعدداً من ترجمات دار **الآداب**). ثم تَبِعَ هذه مجلدات عن الحرب العالمية الثانية وتسعون مسرحية عالمية وعدد كبير من المجاميع الشعرية (صلاح عبد الصبور، البياتي، السيّاب، أدونيس **كتاب التحوّلات** الذي حاولتُ أن أشتريه وأستعيدَه إلى مكتبتي فلم أستطع لأن سعره كان مرتفعاً). ولكنّ هذا لا يكفي، إذن، سنبيع اللوحات التشكيلية التي تزيّن الجدرانَ، وقطعتيْن من السيراميك، وحوضاً صغيراً من الزجاج لتربية أسماك الزينة ظلّ مهملاً طوال أربع سنوات لأننا لا نملك أن نأكل سمكاً فكيف لنا أن نجني أسماك الزينة؟ ولكنّ هذا لا يكفي، سيّدي العزيز، فالأسعار بارتفاع، والحلفاء قد تحالفوا على تجويعنا وحدَنا فحسب، وهناك من يأكل وهناك من لا يجد ما يأكله غير أصابعه والكتب!

أخي وأستاذي الجليل. هذا جانبٌ من أزمتي ومأساتي التي هي أزمة عامّة في جانبها الواضح والصريح والمعلن ولكنها جدُّ شخصية في الجانب الآخر. إذ ربّما لا تتبادر إلى ذهنك الآن الكيفيّة التي سأبيع فيها الكتب! أيّ أن أتحوّل وأغيّر من طبيعتي: من مبدع إلى بائع. إنّه تبديل كينونة بالتمام. تلك هي المسألة، إذ ليس كلُّ من يرغب ويريد، يستطيع ذلك بالضرورة. وقد أوْشَكَ أحدُ القصّاصين أن يغمى عليه وهو يراني واقفاً في مدخل شارع المتنبّي أفترشُ الطريقَ بالكتب الأدبيّة صامتاً لا أعرف ما سأفعل؟ ولكنْ كان لا بد من هذهِ المغامرة للتخلّص من العذاب اليومي المستديم والحيرة والرغبة في عدم الذهاب إلى البيت لئلا أواجَهَ بالنظرات القاسية، وبالصمت الذي وحدَه يجيد أقسى الكلام. لا بدّ من الوقفة تلك! وتهالَكَ ذاتَ يوم أحدُ الأدباء الشباب وأجهشَ بالبكاء وهو يشهد كيف أمنح أحدَ الكتب بسعرٍ بخسٍ لمشترٍ ظنّ بالبائع سذاجةً أو جهالةً فتلقّفَ الكِتَابَ فرحاً؛ لقد بعتهُ **المثقفون** (لِسيمون دي بوڤوار)؛ ولقد أدرك ذلك القاص أني أفعل هذا بدافع لا علاقة له بالبيع والشراء.

ولكنّ تلك الدموع التي ذرفها بعضُ الأصدقاء لم تعالج أزمتي، بل راحتْ تؤثّر سلباً عليّ. وبدأت بعضُ الصحف، تشير إلى ما أعانيه حتى كانت آخرُ الإشارات التي ظهرت ويقول فيها كاتبها: «... وآخر المبتلين بالثقافة على هذا السوق كان من الذين تجرّعوا غصصاً كثيرة... ذلك هو القاصّ السينيّ المبدع أحمد خلف. لم تمضِ سوى بضعة أشهر على صدور مجموعته الأخيرة حتى اضطرَّ هذا المبدعُ إلى أن يفترش طرقات هذا السوق قهراً ليوالي إفراغ مكتبته الشخصية في سِلالِ المتبضّعين والهواة ومحبّي الشماتة. أحمد خلف، يا من لا تعرفون، يتآكلُ من الداخل حين يسفح ذاكرتَه الثقافيةَ في ظرف عصيب هو الأكثر قسوةً عليه خلال عقوده الخمسة، لم يشفع له أنه أحدُ أسماء قليلة أسهمتْ بجديّة بتحديث القصّة العراقية.»

تلك هي سويداءُ المعاناة أو جانبها الخفي والمؤثّر في حياتي.

أخي أبا سماح العزيز، إذا كان لا بدّ لي من القول بعد هذا فإن أموراً كثيرة تنتظر أن يسعدني الحظ وأن التقيك لكي تعرف بها مِني وأن أبوح بها لك على مهلٍ وتروٍ فيشترك الصوتُ مع المفردات وتصغي لي بجلستك الهادئة التي أحمل صورتها في ذهني وعقلي ووجداني الآن. نعم - أقولها لك الآن يا أيها الأخ والأستاذ العزيز لقد كان من الممكن القيامُ بخطوة أخرى تحسم الأمر وتقلب الموازين، خطوة غير العمل ببيع الكتب وهي مهنة لم أتعلّمها ولم أتقنها حتى الآن ومنذ اليوم الأوّل بتاريخ ٢٦/١/١٩٩٥ حيث بدأتُ مغامرتي للتصدّي للأزمة الطاحنة. وأمّا الخطوة التي أعنيها فهي العملُ خارج بلدي، أيْ أنْ أختار قطراً عربياً لكي أعمل فيه، وهو أمرٌ ممكن جداً. ولكن هذه الموضة لم تكن تروق لي منذ حاولها عددٌ كبير من الأدباء العرب قبل العراقيين حين كانوا في منافٍ اختيارية. الكاتب إنما يكون في بلده، وليس هذا كلاماً يخصّ السياسةَ أبداً بل يعني الإبداعَ كتجربة عميقة فقط. أنا يا سيّدي لا أجيد العيش في أيّة عاصمة عربية أو أجنبية غير بغداد؛ فللمدن هيمنتُها علينا. بعض المدن تبدو كالرّحم بالنسبة لبعض الكتّاب؛ وبغداد هي الرحم التي لا أحسن العيش في غيرها. تلك مسألة شخصية أرجو أن تنظر إليها من جانبها النفسي والأخلاقي لا العاطفي فحسب. والقطر العربي الشقيق الذي زرته خلال السنوات الأربع الماضيات هو الأردن، وقد وجدتُ فيه ترحيباً وعوناً ومؤازرة أخويّة راقية من أسماء أدبيّة حقيقية (كمؤنس الرزّاز وإلياس فركوح ومحمد عز الدين المناصرة وغيرهم). لكنّ سبعة أيّام عشتها في عمّان جعلتني أزداد حنيناً إلى مرابع فتوّتي وشبابي، فحزمت حقيبتي وعدتُ حالاً. ألا ترى أنها مسألة جد شخصية؟ (وما دمتَ قد خربتَ حياتك في هذا الركن الصغير من العالم فهي خراب أينما حللت). ولكي لا نذهب بعيداً في الكلام فإني سأكتفي بالعيش الزهيد والحياة الصعبة.

ولكن الذين كانوا لنا أخوة وأصدقاء وأحبّة نسونا وما عادوا يتذكّرون شيئاً من كلماتهم الحلوة المؤثّرة؛ أعني الذين مدّوا أيديهم لأيدينا ليصافحونا ما عادوا يفكرون بنا ولا كلّفوا أنفسهم كمثقفين عراقيين وعرب بالسؤال عن أحوالنا ومعاناتنا. بالتأكيد كانت التفاتة نبيلة ورائعة من مجلة **إبداع** المصرية وشاعرها الكبير الأخ أحمد عبد المعطي حجازي في أن يصدر أحد أعدادها عن الأدب العراقي زمنَ الحصار. وكان موقفاً عربياً كبيراً متوقّعاً من مجلة **الآداب** أن تصدر عدداً خاصاً بالأدب العراقي، تتصدّرها تلك الكلمة الأخويّة المؤازرة لسماح ادريس وهو ينادينا عبر سطور كلمته الأخوية(...)

أحمد خلف
بغداد

الظلامية... وشمس الاختلاف!

العزيز د. سماح (...)،

فبعد أن مَنَّ الله عليّ بالشفاء، واستطعتُ حملَ القلم، كان أوّل شيء فكرتُ فيه هو الكتابة إليكم لأبارك لكم هذه القفزة النوعية الرائعة التي قفزتها **الآداب** في السنوات الأخيرة. فالأدباء هنا في مرّاكش يجرون وراءها في الأكشاك والمكتبات لاقتنائها. ومن فاته عددٌ من أعدادها يستعيره ممّن اقتناه لأخذ نسخة منه. فهم يعتبرون **الآداب** قارَّتَهم النظيفة التي لم تلوثْها الأوبئةُ ولم تُفسدْ مسيرتَها التاريخيةَ الرائدةَ النزعاتُ والنزغاتُ الإيديولوجية المقيتة، ولا الدُّرَجُ (= الموضات) العمياءُ المسكونة بهاجس التدمير وغواية العَوْلَمَة الجديدة.

سيّدي الفاضل الأعزّ:

إني أُعزّ الشاعر أدونيس، وأتشرَّبُ إبداعاته بعشق ونَهَم، ولقد أحسنتُم صنعاً بتكريس صفحات بعضِ الأعداد الأخيرة لِمَا أثارته تحرّكاته الأخيرة من ريبة عند البعض... ولكني لا أريد للمفكّرين والمبدعين أن يسقطوا في هوّة التجريح وأن يصبحوا أكْلَةَ أعراض ولحوم، ولا قتلةً باسم الفكر والإبداع. فكفانا ظلاميةً ووحشيةً، ولتسعْ شمسُ الاختلافِ كلَّ مَنْ يناصر الحرية ويؤمن برحابة الهوية(...)

احمد بلحاج آية ورهام
(مرّاكش)

مرآةٌ لأنفسنا!

د. سماح ادريس المحترم - تحيّة عطرة وبعد:

تتوسّد مدينتي «الرقّة» الضفّةَ اليسرى لنهر الفرات، أما **آدابكم** الغرّاء، فإنّها تلوح على الضفّة اليمنى. لذلك نراها بين أعيننا ولا يفصلنا عنها سوى صفحةٍ من لُجَيْن؛ فهي مرآةٌ لأنفسنا، وبإمكاننا أن نكتب على وجهها رسائلَ مودّة لكم(...)

ابراهيم الزيدي
المشرف الثقافي بالرقة

من «الآداب»

- إلى صاحب مقالة «الآيات الشيطانية»: الرجاء ترجمة مقاله «بنيّة حسنة» بكاملها (في حال عدم تجاوزها أربع صفحات من **الآداب**) كي لا تقع (ونقع معك) بما اتّهم المؤلف الآخرين به - نعني: قراءة بعض مقاطع روايته لا روايتها كلّها والحُكم على الكلّ بالجزء! والرجاء أيضاً أن تقتطف من مقالتك ما يشكّل مقدّمةً لهذه الترجمة بما لا يتجاوز الصفحتين من حجم مقالتك الأصليّة.

- إلى صاحب مقال «مفهوم النصّ: الخفاء والتجلّي». الموضوع هام ومثير. لكنّ هناك بعض الكلمات والجمل غير المفهومة. الرجاء تشكيلُ ما هو ملتبس (الجملة الأولى مثلاً)، أو شرح بعض الكلمات («فرادية»؟)، أو تبسيط بعض الجمل الفلسفية («لعلّها، أي حركة التحوّل الإسلامية، أن تكون قد تحامَتْ نفيَ الوعي لئلا تنزلق في وعي النفي، الذي هو بَتْرٌ مع أصالة المنهج، وتبرير لسلق الوظيفة، وارتكاسة للأسلمة»). وفي غياب مثل ذلك التبسيط والتوضيح، فإن المجلّة ستعتذر عن نشر المقالة، وتحيلك على واحدةٍ من المجلات الفلسفية أو الفقهيّة المختصّة.

- صاحب «الرواية العربية والأفريقية...». الموضوع كبير، والمعالجة مختصرة جداً!

- أصحاب الحوار مع الأستاذ محمد الدغمومي.. الحوار هام، لكنّه مضطرب بسبب القفز من فكرة إلى أخرى ومن فصحى إلى عاميّة (كما هي حال معظم الحوارات). نتمنى أن يعيد الأستاذ الدغمومي قراءة الحوار بنفسه لشطب ما يجب شطبه ولتوضيح بعض المعاني الملتبسة... مع التقدير لمجهود المحاورين!

- صاحب مقالة «حنّا مينة.. جمالية النموذج». يؤسفنا أن تكون قد بعثت بمقالتك إلى مجلة أخرى نشرتها في عددها الأخير. ولا نعتقد أن **الآداب** تستحق معاملتك تلك!

- إلى صاحب بحث «مقدمة في الميتولوجيا العربيّة». بحثُك، أيّها الصديق، هام، ولكنه طويل جداً أولاً، وهو أحقّ - ثانياً - بأن يُدرَجَ في مجلّة انتروبولوجيّة أو علم اجتماعية مختصّة.

عدد العراق.. مجدداً

الدكتور سماح ادريس (...)

أملُ أنْ لا تكونَ رسالتي قد تأخّرتْ طويلاً؛ فلم يَحصل الأدباءُ في هذه المدينةِ على عددِ **الآداب** الممتاز بالفعل [المقصود العدد المخصّص للأدب العراقي، ١١/١٩٩٤]، إلاّ قبل أسبوع. لقد شعرتُ بالاستياء بالفعل من بعض الأدباء الذينَ حاولوا الانتقاصَ من أهميّةِ هذا العددِ الممتاز. لا أدّعي أنّهُ لم يكنْ مُوفّقاً.. إلاّ في اغفالهِ فترةً مُهمّةً - امتدتْ طوال مُدّةَ الحرب الأولى، والثانية. لقد أنجبت هذه الفترة أُدباء مُهمّين، عُرفوا بأُدباءِ الظلّ، ولا أكتمكَ؛ فقد حاولتِ المؤسسة الإعلاميةُ خنقَ هؤلاءِ الأُدباء، وتهميشَ دورهم، بشتى الوسائل. إنّ ادباء الظلّ، أو ما أُسميهم هكذا، هم الوليدُ الحقيقي لفترةٍ مضطربةٍ بالأحداثِ والمآسي، ولا ندّعي أنهم استوعبوا الحالة بالكامل أمامَ طغيانِ ما يُسمى بأدباءِ الدولةِ، الذينَ حَيّدوا دورَ الأدب في المجتمع العراقي؛ وهذه هي المأساةُ. لقد تطرّقَ الأخ ماجدُ السامرائي في مقدمتِهِ القصيرةِ إلى هذهِ الفترةِ بعجالةٍ، افقدتْهم أيَّ دورٍ لعبوهُ، حتى ولو كانَ [ماجد] داخل الوسطِ الأدبي العراقي الذي هو على تماسٍّ مَعَهُ؛ ولقد دعاهم بأدباءِ ما بعدَ السبعينات. لكنّ هذا يَبدو كلاماً عاماً؛ ولربّما كانَ لحجم المجلةِ المحدّدِ ما يبرّرُ إهمالَ هذهِ الفترةِ المهمّةِ، لكنّ هذا لا يُعطي الحقّ لبعض الأقلام في أنْ تشنّ هذه الحملةَ الشعواء. لقدْ ذكرَ الأخ عبد الرحمن عبد المجيد الربيعي في رسالةٍ بعثَها إليّ قبلَ أيّام بأن هذه الأقلامَ قامتْ بالهجوم لأنّ المجلةَ لم تنشرْ لهم نصوصهم. قد يَبدو لي هذا تفسيراً للضجة التي افتعلوها. أضيفُ إلى أنهم أسماء بارزة على الساحةِ الإعلامية ولكنْ من دون جوهر. نعم لقد ساهمتْ المؤسّسةُ الاعلاميةُ في إبرازهم، لأسبابٍ تخصُّ المرحلة، وأظنُّ أنّ مثلَ تلكَ الأصواتِ لن تستطيع أن تخدشَ ذلكَ الثوبَ الأبيضَ لـ**الآداب**. إننا نشدُّ على أيديكم، ونأملُ أن يستمرَّ عطاءُ **الآداب** في إبرازِ الأدبِ العربيّ بهذهِ الصورة الكبيرة.

عَزيزي في هذه الرسالة بعضُ نتاجاتِ أُدباءِ هذهِ المدينة، آملاً أنْ تجدَ طريقَها إلى النشر، إذا كانَ ذلك لا يتعارضُ وأهداف المجلّة.

عبد الامير الوليد
رئيس رابطةِ القصصين/ ذي قار
(سومر - العراق)